العدد (1770) السنة السابعة - الاربعاء (14) نيسان 2010 ◆ http://www.almadapaper.com - E-mail: almada@almadapaper.com

الآراء الواردة في الصفحة تعبر عن وجهات نظر كتابها ، وقد لاتتفق بالضرورة مع وجهة نظر الجريدة

أنين بغداد ووحشة صمتها

سعاد الجزائري

يستعذب الجلاد او القاتل رؤية ضحيته حينما يسيل دمها بهدوء وينساب بسلاسة على حافات الشوارع المظلمة، ويستمتع بسماع انين الوجع حينما ينتشرصداه في زوايا الاماكن، ولا تدهشه صورة اشلاء البشر المنثورة بين الاسماء التي ضاعت في زحمة حطام الكراسي التي شهدت جلسات حميمية لن تتكرر هذه الايام كثيرا، ولا يسمع القاتل الصوت المخنوق تحت الركام والذي يكرر (انا هنا.. انا هنا) متشبثا بحياة قد تدوم فيما لو سمع صوته هذا الباحث عن بقايا بشر تحت اكوام اماكن كانت مليئة بالحياة قبل قدوم الموت اليها..

اسموه الثلاثاء او الاربعاء او الاحد الدامي، وكان لنا قبلها خميس وجمعة واثنين دامية ايضا، ونحن منذ زمن سحيق وغابر نبحث عن يوم لا دم فيه..

كل الأيام باتت تقودنا الى وحشة الصمت، وبغداد التي بدأت تنهض ببطء شديد من كبوتها الطويلة،وبدأ اهلها يتناثرون كبالونات عيد في شوارعها، فرحين بهذا الهدوء الحذر، والذي لا يعرفون كم سيطول، عادت مرة اخرى لهذا الصمت المدوي الذي يلفه خوف من بريق قد ينفجر ويرتفع دخانه الابيض في الهواء ليغطي شمسنا الشاحبة، ساحبا ورائه الدخان الاسود الذي سيخلف لا محالة جثثا كانت قبل لحظات تمتلك احلامها، وتخطط لمستقبل لا تعرف انه سينفجرويتوقف بعد لحظات. وهناك عين تتفرج على ذلك دون ان يرتعش لها جفن..

وسط هذا الكم الهائل من الحزن واليأس تطالعنا التصريحات التي تقدم الوعود مجانا، او تتحدث عن حكومة ستتشكل، وحتى ذلك الحين، ربما يتحقق قول تلك المرأة التي ارتعشت كلماتها بين بكاء يوشك ان ينساب من روحها وعينيها وهي تصرخ امام الكاميرا: :ما الذي يريدونه منا، قالوا انتخبوا فانتخبنا، فلماذا نقتل بسبب تهافتهم على كراسي السلطة، هل يريدون منا ان نترك لهم العراق ونرحل".. فعلا ما الذي يريدونه منا، لكي لا تشتد الخلافات بينهم، ومع تفاقم هذه المحنة، تتوزع المفخخات في شوارع تلك العاصمة التي نست اسمها واهلها، وسترحل عنا الى مكان قد نجهله.. من سيعوض تلك الارواح التي رحلت قبل ان يكتمل حلمها باليوم المقبل..

يزداد خوف العراقي مع كل انبثاق جديد لتجمع سياسي او ديني او قومي، لأننا شعب لا يحب ولادة الاشياء، ليقيننا انها ستوأد قبل ان يكتمل نموها، وان ميلاد أي تجمع سياسي جديد، يعني بالنسبة لنا جبهة خلافية اخرى، وكل جبهة تعني بالتالي ساحة قتال، لا يعرف اي منا من هو الصديق فيها، ومن هو العدو..

نحن شعب تاه منذ زمن بعيد، وفقد خلال رحلة التيه هذه احساسه بالاماكن، واصولها، فقد قدرته على معرفة اين يكمن النور، لان ظلمة الدخان الاسود، غطت منافذ النور، ومنها نور الحياة..

شعبنا يزحف بجزع من اجل الوصول الى نقطة امل كان يريدها، لكن آلة العنف تزحف نحو احلامنا فتبتلع الحلم والرأس الحالم.

نحن شعب يتشبث بألامل مهما تضاءل حجمه، لكن الامل مقيد في قبو تحرسه اشباح الظلام التي جعلت بغداد تئن تحت جنح الليل، وتبحث عن أناسها الذين نستهم زواياهم وهجرهم الفرح،

بغداد تتغطى بترابها الذي ابتلع لونها الاخضر، وصفاء سمائها، بغداد صورة مخفية بين الحب ووريد القلب، بين السر والحب، انها الصورة التي نحفظها في جفوننا، لاننا نردد لها:

بغداد.. أنت..أنت.. في دمي.. رغم ان دمنا ينساب في الشوارع دون ان يقول العالم المحيط كلمة حق فيه..

وجهة نظر

عندما تجاوز الشيوعيون العتبة

إحسان الياسري

كانت إيديهم ترتجف وهم يؤشرون على قوائم أخرى وأسماء اخرى.. ولم تنقطع حواراتهم عن مزايا الشيوعيين وعفتهم ونزاهتهم ونظافة إيديهم.. وكلما تحدث الناس عن مواصفات المسؤولين والقادة، أو كلما تذكروا ايام الضغط الاجتماعي والعنف بمختلف اشكاله، او الأيام التي أمتدت إيدي بعض الناس إلى المال العام، فرض الشيوعيون اسمهم، حيث لم يسرقوا او ينهبوا ولم يستخدموا نفوذهم للانتفاع منه.. والذين لم يفهموا ابجدية العنف الطائفي، بل كانوا ادوات لتهدئة الناس ومداواة جراحهم..

فما الذي حصل لبعض الناس يوم السابع من آذار، يوم زحفوا إلى صناديق الإقتراع وهم يعتقدون بإن الشيوعيين هم الاجدر بتمثيلهم في المجلس النيابي، ومن الممكن ان يكونوا ضامنين لمشاركة فاعلة للسلطة التشريعية في مراقبة اداء المؤسسات التنفيذية.. ولكن اقلامهم انحرفت عن قائمة اتحاد الشعب واختارت قوائم أخرى..

هل كان الناس قلقين من عدم وجود الفرصة للشيوعيين، فخشوا من ضياع اصواتهم، وفضلوا اختيار قوائم وأشخاص يمكن ان يكون فوزهم مضموناً.

وهل ذهب الناس للصناديق وهم يحملون قناعة مزدوجة، قناعة الممكن، وقناعة الاماني.. وهل عجز الشيوعيون وانصارهم من اقناع الناس بان عدم تحالفهم مع قائمة كبيرة كان اجدى للمجتمع ولمستقبل العراق.

وهل أحسنوا في عدم الائتلاف مع قائمة كانت ستوفر لهم ستة او سبعة مقاعد في مجلس النواب..

وهل صحيح إن رموزاً كبيرة في القوائم الفائزة هي التي أدخلت العشرات من أعضائها إلى مجلس النواب، وإن وجود شخصيات شيوعية مرموقة في الائتلافات الكبيرة سيضمن دخولها (الشخصيات) إلى البرلمان..

وهل يُعقل ان يدخل مرشح للبرلمان لمجرد حصوله على اقل من ألف صوت في إحدى القوائم الكبيرة بينما يتعذر على (أبي داود) وشيوعيين آخرين دخول المجلس..

وهل يمكن لمرشح حصل على أقل من ألفي صوت ان يدّعي تمثيل الشعب العراقي لمجرد إن رئيس الائتلاف حصل على نصف مليون صوت فمنحه خمسة وثلاثين ألف صوت من اصواته تؤهله دخول البرلمان، بينما لا يجد شخصية مثل الأستاذ حميد مجيد موسى أصوات تؤهله لعبور (العتبة)..

وهل صحيح إن بغداد، عاصمة الرشيد والجواهري والبياتي وأبو كاطع ووو.... تبخل على احد الرموز الوطنية بخمسة وثلاثين الف صوت، فيما تسمح لعدد كبير من اعضاء الائتلافات الكبيرة من دخول البرلمان بثلاثة آلاف صوت أو ألف وخمسمائة صوت أو (ستمائة وخمسون صوتا)..

مرة أخرى (ستمائة وخمسون صوت)، ليدخل في البرلمان، ويبدأ من تحت القبة بالصياح أمام الكامرات (أنا ممثل الشعب) بينما تمتنع بغداد عن تجميع أصواتها لقبول شيوعي في برلمانها..

هل سيدرس الشيوعيون هذه المفارقة، بل هل سيدرس البرلمان هذه المفارقة.. مفارقة ان يصبح احد الأشخاص عضواً في البرلمان لمجرد حصوله على الف صوت، بينما ينص الدستور على إن كل عضو برلمان يمثل مائة ألف عراقي.. فهل يختزل قانون الانتخابات الـ (مائة الف) بألف..

وهل سيدرس الشيوعيون ظاهرة عجزهم عن تجميع خمسة وثلاثين ألف صوت في كل بغداد؟ بغداد التي تضّمخت ارضها بدماءهم.. أم هي ظاهرة (هذا أحبه، وهذا اريده)، عندما كانت إحدى الممثلات تبرر زواجها من مقاول ثري، بينما تقسم أغلظ الايمان إنها تحب حبيبها حد الموت، لان الاخير كان (شيوعيا) كما يبدو.. أو جريا على مقولة (قلوبنا مع علي وسيوفنا عليه)، فذهب البعض للصناديق وهم يتحسرون على انفسهم لكونهم ماضون لانتخاب القوائم الكبيرة، بينما رغباتهم واحلامهم تدعوهم لانتخاب (اتحاد الشعب)..

ولقد أخطأ الشيوعيون في تقدير شارعهم حين تحالفوا مع قائمة معينة في الانتخابات الأولى، ثم انسحبوا منها بعد ان لامهم انصارهم، بينما لم يتحالفوا في هذه الانتخابات، فخذلم شارعهم.

وإذا كان الأقرب لهم في هذه الانتخابات هو ائتلاف دولة القانون، أو العراقية، فان فرصتهم مع هذه الائتلافات كانت ستكون جيدة جداً قياساً بما حصدوه..

ولم يكن هذا خطأ الشيوعيين الوحيد.. فقد أخطأوا في انتخابات مجالس المحافظات.. إذ دخلوا بمفردهم بينما كان المجتمع يحتفل بانتصارات الدولة على العنف والارهاب والميليشيات، وكان المجد الاول في الشارع لائتلاف دولة القانون، ولكن الشيوعيون اعتقدوا بأن الناس ستترك مرشحي (المالكي) صاحب القوة التي طمأنت الناس على حياتهم وتنتخب (الملائكة) الذين لا سلاح بايديهم ولا وظائف او اموال او سلطة..

كما أساء الشيوعيون تقدير حجم الشارع، فنسوا إن جُل أعمار شارعهم من جيل الستينات في افضل الأحوال، أما جيل السبعينات وما بعدها، فقد مر بعوامل عدة، ابتدأت بضغط النظام، ثم بانهيار الحكم الشيوعي في معظم دول العالم الشيوعية، وتداعيات سقوط النظام العراقي عام ٢٠٠٣ وما تبعها من التفاف الشباب حول قوائم ورموز معينة.. لذا فالشارع العراقي من الشباب (من غير العوائل الشيوعية) لم يكن شارعهم ولم يستطيعوا الاتصال به مطلقاً.

وهل كان الأفضل للشعب العراقي ان يحصد إئتلاف السيد المالكي (٨٩) صوتاً بدون الشيوعيين، ام يحصد (٩٧) صوتاً مع عدد من الشيوعيين..

وهل ينبغي التذكير بان السيد المالكي هو الذي مرّر ما لا يقل عن عشرين نائباً إلى البرلمان من الأصوات التي حصل هو عليها في بغداد، وكان بالامكان ان يمرر معه خمسة او ستة من الشيوعيين بـ (تمويل) أقل. فبدل ان يموّل لكل واحد من قائمته باكثر من اثنين وثلاثين الف صوت، كان يستطيع ان يموّل لكل شيوعي ربما اقل من خمسة آلاف صوت..

لا ادري، هذه كلها تخمينات مبنية على فرضية إن دخول الشيوعيين في ائتلاف السيد المالكي كان فرصة لهم بالدرجة الأولى، وفرصة لهذا الرجل في تأكيد قوة ائتلافه وارتباطه بمرحلة مهمة من مراحل النضال الوطني للحزب الشيوعي وحزب الدعوة وهما (تأريخيا) رائدا النضال الوطني والفكر في العراق..

في كل الاحوال، انا غير مؤهل لوضع أي سيناريو، غير إني امنح نفسي الحق في التساؤل: هل يحتاج الشيوعيون الى خبرة اضافية في اللعبة السياسية.. وكم من الناس عاشوا هذا الصراع الغريب يوم ٢٠١٠/٣/٧.

ففي بغداد، وعلى اساس ما حصل عليه ائتلاف دولة القانون، مثلا، بفضل الأصوات التي حصل عليها السيد نوري المالكي، كانوا سيحصلون على ما لا يقل عن خمسة مقاعد، إذا ما عرفنا إن نصف نواب هذا الائتلاف في بغداد كانت اصوات كل واحد منهم أقل من ثلاثة آلاف صوت، وكان هذا الائتلاف سيحصد (بوجود الشيوعيين) ما يزيد عن ثلاثين مقعداً في بغداد، ولإنزاحت نهائياً عن هذا الائتلاف الصبغة الطائفية أو الدينية بفضل الشيوعيون.. ويصدق هذا الكلام في البصرة وفي الموصل وفي الحلة والعمارة والديوانية والكوت وكركوك وديالى وتكريت..

لا ادري.. ففرصة الشيوعيين في هذه الانتخابات كانت ستكون بحدود ٣٪- ٥٪ من أصوات الناخبين او من مقاعد البرلمان لو تحالفوا مع ائتلاف دولة القانون. يعني كان بامكانهم ان يحصدو عشرة مقاعد او أكثر.. ولا أدري إن كان التحالف مع العراقية سيوصلهم لنتائج مماثلة.. لا أدري..

هل خسر العراقيون إذ لم يختاروا شيوعياً للمجلس.. هذا سؤال يتداوله بعض العراقيين الذين صوتوا للسيد المالكي او للسيد الجعفري او للسيد علاوي، او لآخرين، وكانت قلوبهم مع الاستاذ حميد مجيد موسى وقائمة اتحاد الشعب.. وهو سؤال ربما ظلوا يرددونه وهم في الطريق إلى صناديق الاقتراع، أو قبلها بساعات، وحتى عندما وقفوا وحيدين داخل الحاجز (الكارتوني) لإملاء الاستمارة..

ديبغو غارسيا .. صاحبة الدور المحوري في حرب الخليج القادمة

د. عبد الله المدني

وفي هذا السياق، تكرر ورود إسم جزيرة "ديبغو غارسيا" كمنطلق لغارات جوية متتابعة ومكثفة ضد الأراضي والمنشآت الإيرانية، وبما يعني أن الجزيرة المذكورة ستلعب دورا محوريا في أية حرب قادمة في الخليج، مشابها لذلك الذي لعبته أثناء حرب تحرير الكويت، إن لم يكن أكبر. ففي الأنباء أن "ديبغو غارسيا" تشهد منذ بعض الوقت حركة غير طبيعية لجهة تجهيز وتوسعة مهابط الطائرات وبناء التحصينات والمهاجع والمستودعات الإضافية، علاوة على حركة لافتة للنظر في أعداد الطائرات والمروحيات والقاذفات المقلعة والهابطة، وفي أشكال التدريبات والتمارين اليومية.

وما يعنينا هنا ليس التثبت من صدق تلك التحليلات أو زيفها أو الدخول في جدل حول نتائج الحرب المتوقعة وتأثيراتها على دول الخليج وشعوبها، وإنما تسليط الضوء على "ديبغو غارسيا" ودورها في الماضي والحاضر في المخططات الإستراتيجية الأمريكية، وأسباب عدم حصولها على الإستقلال كغيرها من المستعمرات، خصوصا وأن القارئ العربي بصفة عامة لايعرف سوى القليل عنها، بل ربما لا يستطيع تحديد موقعها على الخارطة.

جغرافيا تقع "ديبغو غارسيا"، التي تبلغ مساحتها الإجمالية ١٧ ميلا مربعا في مياه المحيط الهندي، على بعد ألف ميل تقريبا من الساحل الجنوبي للهند، و١٢٠٠ ميلا من جزيرة موريشوس. ولهذا فإن أقرب قطع اليابسة إليها هي سريلانكا وجزر المالديف. وقد ظلت طويلا أرضا غير مأهولة بالسكان، إلى أن جلب إليها المستعمرون الفرنسيون في القرن الثامن عشر للميلاد سكانا من مستعمراتهم في أفريقيا وموريشوس وسيشيل للعمل في مزارع جوز الهند. وتزايد عدد السكان في أعقاب سقوط الجزيرة في أيدي البريطانيين بعد هزيمة الفرنسيين في الحروب النابليونية، حيث جاءتها أعداد أخرى من العمالة من شبه القارة الهندية.

تاريخيا ظلت الجزيرة إحدى ملحقات موريشوس من عام ١٨١٤ وحتى ١٩٦٥ ، أي حتى العام الذي قامت فيه حكومة رئيس وزراء بريطانيا العمالي هارولد ويلسون بإنتزاعها من موريشوس مقابل وعد للأخيرة بالاستقلال في عام ١٩٦٨ و بدعوى رغبة لندن في إستئجار الجزيرة من أجل إقامة قاعدة عسكرية لها فيما وراء البحار. ومن أجل إقامة تلك القاعدة عمد البريطانيون إلى إخلائها من سكانها، بتهجيرهم إلى الدول الذي جاؤوا منها أصلا كالهند و كينيا ومدغشقر وموريشوس وسيشيل، بحيث لم يبق فيها في عام ١٩٧١ سوى أقل من ألفي نسمة . ويعتبر عام ١٩٦٦ عاما مهما في تاريخ هذه الجزيرة، حيث أبرمت لندن فيه إتفاقية مع واشنطون (من المفترض أن تنتهي بحلول العام ٢٠٣٦) أعطت بموجبها الأولى للثانية الحق في إقامة قواعد ومنشآت عسكرية أمريكية فوق أراضي الجزيرة، بشرط تلبية الحاجات الدفاعية للبلدين معا، وذلك ضمن التحالف الأمريكي – البريطاني لمواجهة التمدد الشيوعي في العالم. ورغم ما تردد أن لندن حصلت لاحقا من الأمريكيين على ملايين الدولارات كتعويضات في صورة تخفيضات على فواتير مشترياتها من صواريخ بولاريس امريكية الصنع، فإنه لم يثبت ذلك بالدليل القاطع.

أما عن التسمية، فقد سميت الجزيرة بهذا الإسم تخليدا لمكتشفها البرتغالي "ديبغو غارسيا" الذي قاد حملة إستكشاف برتغالية لجزر المحيط الهندي في عام ١٥٥٤ للميلاد مع زميله "هيرناندو دو سوتو"، لكنه توفي في رحلة العودة إلى بلاده قبل إكمال مهمته.

عسكريا تكمن أهمية الجزيرة أولا في موقعها الإستراتيجي المتوسط ما بين سواحل الأرخبيل الإندونيسي وساحل إفريقيا الشرقي، ثم في حقيقة كونها مسرحا لمنشآت عسكرية أمريكية وبريطانية ضخمة تشمل محطات الدعم والرصد والإستكشاف وتزويد السفن والطائرات الحربية العملاقة بالوقود والمؤن والصواريخ والذخائر وقطع الغيار، وأخيرا في حقيقة كونها موقعا حاضنا لأدق أجهزة الإتصالات والكشف والتنصت وأكثرها حساسية، علاوة على إحتضانها لما يمكن وصفه بمرآب ضخم وحصين للسفن الحربية والغواصات والمستشفيات المجهزة العائمة.

وبسبب من كل هذا، لعبت الجزيرة دورا هاما أثناء حقبة الحرب الباردة لجهة رصد كل ما كان الدب الروسي والتنين الصيني وحلفائهما يقومون به في مياه المحيط الهندي وإمتداداتها، إلى الدرجة التي تسرب معها خبر عن ضغوط مارستها موسكو على حلفائها الهنود كي يندوا في المحافل والمؤتمرات الدولية بالتواجد الأمريكي فوق تراب "ديبغو غارسيا"، ويطالبوا بضرورة جلاء الأمريكان والإنجليز عنها ومنحها الإستقلال. وبطبيعة الحال فإن الوضع تغير الآن مائة وثمانين درجة، بدليل قيام البحريتين الأمريكية والهندية بإجراء مناورات عسكرية مشتركة على سواحل الجزيرة من وقت إلى آخر.

ولعبت "ديبغو غارسيا" دورا خطيرا وحاسما أثناء حرب تحرير الكويت في عام ١٩٩١. حيث كانت بمثابة نقطة إنطلاق للطائرات القاذفة العملاقة من نوع بي -٥٢ ، والطائرات المزودة للمقاتلات الحربية بالوقود في الجو، والصواريخ القادرة على إقتحام أشد الأماكن تحصينا والتي كانت قد جلبت إلى الجزيرة من قواعدها في ولاية "مين" الأمريكية وغيرها لدك مواقع الحرس الجمهوري العراقي. كما كانت بمثابة محطة تتوقف فيها الطائرات الناقلة للجنود للتزود بالوقود، ولا سيما بعد قرار الهند بعدم السماح للطائرات الحربية الأمريكية المتوجهة إلى الخليج للتزود بالوقود في مطاراتها.

ولعبت "ديبغو غارسيا" دورا لا يمكن التقليل من شأنه في حدثين آخرين أولهما أثناء عملية تحرير أفغانستان في عام ٢٠٠١ ، وثانيهما أثناء غزو العراق في عام ٢٠٠٣ . ففي كلا الحدثين كانت الجزيرة هي المصدر الأول للصواريخ الذكية وأطنان القنابل التي ألقيت على كابول وبغداد لإزالة نظامي صدام حسين والملا محمد عمر من الوجود. وفي السنوات الأخيرة إكتسبت الجزيرة أهمية مضاعفة، كونها صارت حاضنة لمستودعات الصواريخ المتطورة الموجهة بالليزر التي تستخدمها البحرية الأمريكية، والتي تم نقلها من مستودعاتها الأصلية في ولايتي فلوريدا وجورجيا. هذا ناهيك عن ميزة إمتلاكها للمدرجات الطويلة (أكثر من ٦ كيلومترات طولا) والأجهزة الملاحية والفنية الدقيقة اللازمة لإستقبال مركبات الفضاء التابعة لوكالة ناسا في حالات الهبوط الإضطراري. هذه الميزة التي جعلتها ايضا مكانا صالحا لهبوط الطائرات المدنية العملاقة من نوعي إير باص ٣٤٠ و بوينغ ٧٧٧ إذا ما واجهتها مشاكل فنية أثناء طيرانها من الغرب إلى الشرق أو العكس.

ويعتقد أنه بسبب الأهمية الإستراتيجية التي إستعرضناها في السطور السابقة، فإن لندن ومعها واشنطون قاومتا كل فكرة للجلاء عن "ديبغو غارسيا" أو منحها حق تقرير مصيرها. ولعل ما ساعدهما على ذلك عدم وجود أية مقومات لقيام كيان مستقل، ولا سيما السكان الذين لا يزيد عددهم في أفضل الأحوال عن ٤٥٠٠ فرد شاملا عوائلهم وأطفالهم. وهؤلاء لئن رفعوا دعاوي ضد لندن أمام المحاكم البريطانية في السنوات الأخيرة، فإن مطالبهم لم تتجاوز حق العودة إلى الأراضي التي هجروا منها بالقوة، والحصول على تعويضات مالية مجزية على ما فرض عليهم من تهجير قسري و على ما تم فرضه على بلادهم من دور عسكري لا يحبذونه، خصوصا وأن هذا الدور يقتضي جعل الجزيرة أراضي مغلقة أمام وسائل المواصلات المدنية والسياحة والاستثمارات الأجنبية، بل ويجعلها أيضا سجنا سريا للمخابرات المركزية الأمريكية على نحو ما تردد بعيد أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١ وما تبعها من حروب وإجراءات مشددة ضد الإرهاب والإرهابيين.

وربما لولا تحرك نواب المعارضة البريطانية مؤخرا لمساءلة حكومة حزب العمال عن دورها في حربي أفغانستان والعراق، و تركها الحبل على الغارب للأمريكيين ليتصرفوا كما يريدون إنطلاقا من أرض يفترض أن السيادة فيها لبريطانيا العظمى، لما تحمس أبناء "ديبغو غارسيا" لمطالبهم، ولما تولد لديهم بصيص أمل في إحتمال إنصافهم. والحقيقة أن أول من سلط الضوء على قضية مواطني "ديبغو غارسيا" هو الأنثروبولوجي الأمريكي اليساري "ديفيد فاين" في كتابه الموسوم "جزيرة العار: تبادل للرأي حول ديبغو غارسيا"، الصادر في عام ٢٠٠٩ ، والذي يتحدث فيه المؤلف بإسهاب عما يصفه بالمؤامرة الأمريكية – البريطانية لتصفية سكان "ديبغو غارسيا" الأصليين عبر تهجيرهم إلى موريشوس وسيشيل، ليعيشوا هناك في فقر وعوز حتى هذه الساعة، وذلك من أجل تحويل أراضيهم إلى قواعد عسكرية حصينة تضمن بواسطتها البلدان (بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية) هيمنتهما على العالم. ويفصح المؤلف عن مواقفه اليسارية حينما يصف ما حدث للجزيرة وأبنائها بأنه عملية تحالفت فيها "الإمبريالية مع الرجعية والعنصرية والعسكريتاريا لإعاقة أحلام شعب يرنو إلى التواجد على أرضه ونيل الإستقلال"، ثم حينما يقول في موضع آخر "لقد تحولت جنة إستوائية ذات شواطيء زمردية وأشجار جوز هند باسقة إلى مخلب لأجندة العسكرية الأمريكية التوسعية".

من يقرأ اللحظة العراقية خارج أوهامه؟

علي حسن الفواز

ما بعد الانتخابات البرلمانية وما تمخض عنها من نتائج، بدت اللحظة العراقية وكأنها امام غابة من الأسئلة التي يمارس صناعتها البعض بنوع الريبة والأوهام المفرطة. هذه الأسئلة تتعلق بطبيعة ما يمكن تحققه الديمقراطية كنظام للإدارة السياسية من معطيات ونتائج، وكذلك بغرابة ما يرافق هذه المعطيات من افكار وتصورات وخطابات إعلامية وحتى تخندقات وعلاقات ومواقف تكشف عن أخطار قد تهجج الديمقراطية ذاتها، العملية السياسية في أصولها المنهجية والتي تقود بالضرورة الى وضع عراقيل وعقد امام الواقع الجديد للتاريخ السياسي العراقي.

هذه الأسئلة لا تعني بالضرورة خروجا عن سياق ما أفرزته الديمقراطية من معطيات، بقدر ما هي لحظة اكتشف فيها العقل العراقي قوته، وقدرته على صناعة قدر آخر، بعيدا عن كل وصايا العقل القديم الذي ظل مشوشا في ازماته، تلك الأزمات التي ظلت تقف عند مأزق البحث عن الوجود والبحث عن الهوية.. هذه اللحظة التي فجرت كل تاريخ المسكوت عنه، لحظة التخندق خارج السلطة القديمة، والفقه القديم، والآخر القديم!

البعض مازال مدهوشا من الحدث، لم يستوعب التغيير وانهيار المفهوم اللاوعي للسلطة الأبوية، وتصدع مفاهيم القراءة التي رسخت في أذهاننا تفسيرا محددا للتاريخ والنصوص والحروب والأزمات، مثلما أعطتنا انطباعا عن حجم التخلف الذي كان يحوط آليات عقلنا الرسمي الذي لم يطمئن لأي تاريخ خارج سياقه وأحكامه..

هذه الأسئلة أثارت أسئلة أخرى، تتعلق بالعلاقة مع الآخر، بالأزمة المسكونة بفوبيا التاريخ (تاريخ ثقافة الموت) وتاريخ(الثقافات المضللة)التي انتجت لنا إيديولوجيات أسكنت العقل الثقافي في جحيمه، وعلقت نزوعه للتجديد والإصلاح على شماعة(البدع والضلالات) وكأن ثقافة الموتى هي الثقافات السياقية الخالدة التي ينبغي أن تظل هي المسؤولة عن أرخنة الإنسان التابع وليس للإنسان المغامر.

من هذا المنطلق كانت الرؤية العاصفة التي وجد فيها العقل الثقافي نفسه امام نمط من(الثقافات)المهددة، والتفقهات الموغلة في تكفيرها، تبدو وكأنها المسؤولة عن صناعات معقدة تمسّ جوهر صناعة التاريخ وصناعة المجتمع وصناعة الدولة، والتي تبدأ من رعب هذه الدولة أساساً، وتنتهي عند رعب الفكر ومجالاته المتعددة، حدّ انها اصطنعت للانسان نسقا مغلقا، نسقا تؤطره نصوص غامضة ومثيرة للجلد والقهر وليس الوجود بكل ما يعنيه من معان وتغايرات وتجاذبات وصراعات وتحولات عميقة يمكن ان تمسّ الجسد والنص والسلطة والجماعة، وهذا التأطير صنع له بالمقابل وسائل دفاعية مرعبة تمظهرت عبر وسائل الغلو الثقافي والفقهي، وعبر وسائل الترهيب والتكفير وطرد الآخر.

وفي الحالة العراقية نجد ان ظهور هذه الأسئلة كان قرينا بشيوع نوع من المغالاة التي أعادت إنتاج فقه الأزمة، ومحنة العقل، والتي اتسمت باستعادة فكرة الدفاع عن الأصل، عبر تدمير الأصول الأخرى، واستعداء كل(جوانيات) العقل المحبط لمواجهة تاريخ طويل وعميق الأثر في الحياة العراقية(تاريخ الجماعات والثقافات والمدارس)، هذا التاريخ الذي استوعب الكثير من الصراعات والمواجهات، وجسدّ عبر وقائعه تحولات أثرت البيئات الثقافية برغم عنف السلطات الحاكمة، وكان هذه الثقافات(الشعر، السرد، الحكاية، الاجتهاد، الدرس الفقهي التنويري، القصص الشعبية والملاحم الأسطورية والتخيلات الشعبية) كانت نوعا من التورية لثقافات مضادة، فيها الكثير من الاحتجاج، والتي ظلت الحاكميات تخضعها الى نوع من التلصص الخفي، وكان انهيار الانظمة السياسية في العراق يعود دائما الى أسباب خارجية كما تقول الروايات التاريخية وتحت نفس السبب وهو الغزو، لكنها لم تتحدث عن العوامل الداخلية التي أسهمت في انهيار هذه الأنظمة رغم جبروتها، فضلا عن أثر الثقافات الاحتجاجية التي كانت تكبر في العمق الوجداني والسياسي، وتصطنع لها الكثير من الشفرات التي يتداولها الشارع الشعبي دائما..

ولعل حديث اليوم بكل عنفه ومعطياته لم ينفصل عن حديث الأمس، فالغزوات التي تعرض لها المكان العراقي وخاصة مدن بغداد والموصل والبصرة، والتي حدثت تحت عوامل مركبة داخلية وخارجية، هي ذاتها التي تحدث اليوم، ظاهرة الاحتلال والغزو الأمريكي للعراق لم تأت من فراغ، ولم تتشكل دون مقدمات، اذ ان هذا الاحتلال جاء بفعل عوامل داخلية كشفت عن انهيار نموذج السلطة وفشلها في إنتاج مشروع وطني حقيقي، فضلا عن عشوائيتها التي قادت الى حروب دامية وعبثية مسخت هوية الثقافة القديمة التي ارتبطت بمخيالنا السردي، كما شوهت تاريخ المنظومات العسكرية والحزبية والاجتماعية التي ارتبطت خلال عقود ماضية بتاريخ الحراك الوطني العراقي.

كما ان للعوامل العربية دورها في تهيئة كل عوامل الاحتلال بدءا من تعاون العديد من الدول العربية مع القوات الأمريكية وتسهيلها لكل الفعاليات العسكرية بدءا من عام ١٩٩١ ولغاية ٢٠٠٣، ناهيك عن الدور الإعلامي والثقافي والتعبوي الذي قامت به دول ومؤسسات وفضائيات وبنوك وجماعات لوضع الحالة العراقية امام لعبة الحرب بالكامل.. وأظن ان ذات القوى التي مارست الدور القديم، تمارس الان دورها الحاضر(دول ومؤسسات وفضائيات وبنوك وجماعات فقهية وثقافية) في وضع كل المصدات التي من شأنها ان تعزل الحالة العراقية أسبابها، وعن سياقها التغييري الاضطراري، وان تسعى بكل عنف وقسوة وتضليل إلى إعادتها إلى حاضنتها القديمة التي لا تؤمن بنظرية قتل الأب الفرويدي حتى وان كان هذا الأب مجرما وقاتلا ومغتصبا.

فكيف نعيد قراءة اللحظة العراقية في ضوء كل المتغيرات؟ وكيف يمكن ان نقترح لها مجموعة من القراءات الجديدة، القراءات التي تمارس لعبة التوغل والتعرّف؟ وكيف يمكن لنا أيضاً ان نشهر الحوار مع فضاء ثقافي مازال يؤمن ان العالم لا يتغير، وان الحاكم دماؤه زرق! وان الأولاد يظلون أولادا ابدا، وان خروجهم عن الطاعة هو الخطيئة؟

هذه الأسئلة تضع امام اللحظة العراقية رزمة من الأزمات، تبدأ من مشكلات الحوار، وتنتهي بمشكلات التطهر من انماط قديمة من الثقافات التي لا يطمئن لخروج الثقافات المسكوت عنها للعلن! وكأن ثقافتنا الرسمية مازالت رغم كل ادعاءاتها بالحداثة والتجديد والتثاقف، تحمل في لاوعيها كل شفرات خوفها النكوصي من السلطة والأب والساحرة والعراف، هذا الخوف الذي يصيبها بالارتباك والقلق وأحياناً بالضجر من اية نوبة عاتية بالتغيير التي تعرّض مؤسسات العقل السياسي اولا للصدمة، هذا العقل بطبيعته يفرض شروطه على(العقول الأخرى) المصابة بفوبيا السلطة والرعوية وغواية صاحب بيت المال..

أنها لحظة مفارقة تحتاج حقا الى قراءة مفارقة..

المتابع لما تكتبه الصحافة الأجنبية الغربية هذه الأيام، سيلاحظ بكل تأكيد وجود العديد من المقالات والتحليلات المطولة التي تتحدث عن أن الولايات المتحدة وحليفاتها لئن كانت تقوم بجهود دبلوماسية دؤوبة لثني النظام الإيراني عن المضي قدما في برامجها النووية المثيرة للجدل، فإنها بالتزامن مع ذلك تقوم بالاستعداد والتخطيط لشن حرب خاطفة على المنشآت النووية الإيرانية.